صور من التاريخ الاسلامي

ابو ذر الغفاري

للأستاذ عبد الحميد العبادي

الأستاذ بكلية الآداب

العربي القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأوضحهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشدهم استمساكا بإبراء الحق ، وأعظمهم حمية أن يجرى عليه ذل أو ضيم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف .

ذلك الخلق ، الذي قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الاخلاقية الحديثة ، يرجع الى البيئة الطبعية والاجتماعية التي نشأ العربي في حجرها ، صيغ على مثالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعي انما هو نظام الأسرة مكبرا . وكم للناس من فضائل هي وليدة بيئتهم ، وان شئت فقل : كم من فضائل الناس ما هو مرزوق غير مجلوب ، وموهوب غير مكسوب !.

ولقد جاء الدين الاسلامي مطبوعا في جملته بالطابع العربي ، موسوما بسمته ، قد سلك الى الحقيقتين الدينية والاجتماعية أقرب السبل ، وعبر عنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهو من ناحية يأمر بالتوحيد المحض ، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس في الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن ينبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وان يحوزوا مواريث أمم التبس عليها أمر الحقيقتين المذكورتين ، فلم يلبث العرب ان تأثروا بتلك الأمم وانتقلت اليها أدواؤها وأصابهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السابقة فقد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء والنحل ، أمرا صعبا مستصعبا ، له ظاهر وباطن ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية في صدر الاسلام ، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول ان هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بذلك النفس العربية الساذجة ، وأبدلوها بالزهد في الدنيا شغفا بها ، وتهالكا عليها . نعم ان أبا بكر وعمر أنفقا جهدا غير يسير في سد ذرائع هذا الخطر ، وبدآ في ذلك بأنفسهما . فكانا مضرب المثل في القناعة والزهد وخشونة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال فلم يقسم بينهم الارض المفتوحة عنوة ، ثم زاد فمنع قريشا من الخروج الى البلدان المفتوحة الا باذن والى أجل . فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التي تفيض

قوة وتصميما . . . . . ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! إني قائم دون شعب الحرة فآخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار ، فلما ذهب عمر لسبيله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها ، وأقبلت تستغل لين ذى النورين وحياءه الجم ، فانطلقت الى الامصار تقتنى المال الوافر والعقار الواسع والاقطاعات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل ، وتتملك أرضا هي بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا في غلته . فأثرت قريش وربلت ، وصارت الى رفاغة عيش لم تحلم بها من قبل بخيال . يحدثنا أبو الحسن المسعودي فيقول : « وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت . . . . . وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول الى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططا بحيث ذكرنا من الامصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكناسة بدار الطلحتين وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (!) وبناحية سراة (؟) أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ، ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك »

ثم يقول المسعودي « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه ، ولم يكن مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة »

مهما يكن من المبالغة في هذا النص ، فهو لا ريب يشير الى حال كانت لابد مثيرة لمعارضة حادة غير هازلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الاسلامية وشيخين كان لا يزال قريبا ، ومبادىء الاسلام الديمقراطية لم تمح بعد من الاذهان ، وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال : نوع يستند الى العنف والقوة المادية ، وكان بالأمصار الكبرى ، حيث الجند الذين شادوا الدولة بسيوفهم والذين أصبحوا يرون قريشا استأثرت بحقهم في الفيء ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر من أهل الكوفة : —

يلينا من قريش كل عام ... أمير محدث أو مستشار

لنا نار نحرقها فنخشى ... وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت خافت مجمجم لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية فى الدولة العربية فقد خلفها فى ذلك الأمصار المذكورة . والحق ان الاوس والخزرج قد أدوا الواجب الذى من أجله لقبوا (بالانصار) ثم أخذ نجم مجدهم السياسى فى الافول . وأما النوع الآخر من المعارضة فكان يستند الى الدليل الشرعى والى مبدأ الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عالم رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان ، صريح فى الحق كل الصراحة : ذلك أبوذر الغفارى .

* * *

كانت غفار من القبائل الضاربة حول المدينة ، وكانت فى الجاهلية تعترف قطع الطريق واعتراض القوافل التى تمر من أرضها وهى حرفة لم يكن بها بأس فى عرف ذلك الزمان ، . فنشأ أبوذر نشأة أعرابية ، واتصف بما يتصف به الاعراب عادة من صدق اللهجة وصراحة القول ، ومرن على حياة البادية بما فيها من خشونة وسذاجة . ويقال انه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه قومه من فساد العقيدة ، فاطرح الأوثان ووحد الاله وذلك قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين . فلما نبىء عليه السلام وبلغت أباذر دعوته ، وجد مشاكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت اليه من قبل ، فرحل اليه من فوره ، وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم وكان خامس خمسة هم كل الجماعة الاسلامية اذذاك . ولقد أبى إلا أن يجهر فى مكة بدينه الجديد فتعمدته قريش بالأذى ثم ذكرت أنه من قوم تمر عيرها من أرضهم ، فكفت عنه .

عاد أبوذر بعد ذلك الى البادية فدعا قومه الى الاسلام فأسلم بعضهم ، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول الى المدينة ، وبذلك أصبحت غفار من القبائل التى ظاهرت الرسول فى محاربته قريشاً . وقد لبث أبوذر فى قومه الى أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول فى غزوة تبوك ولزم صحبته الى ان توفى عليه السلام فكان بذلك من أكبر رواة الحديث .

وقد وردت أحاديث تشير الى أخلاق أبى ذر فيروى أن النبى سمعه يقول لآخر « يابن الامة » فقال عليه السلام « ما ذهبت عنك أعرابيتك بعد » وتخلفت بأبى ذر راحلته عن الجيش فى غزوة تبوك فتركها وادرك الجيش ماشيا وحده فقال الرسول « . . . يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » وورد فيه أيضا « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر »

وأقام أبوذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ألحقه عمر فى العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وان لم يكن منهم ، ففرض له خمسة آلاف درهم فى السنة . ثم خرج الى الشام ، وغزا مع معاوية أرض الروم سنة ٢٣ هـ و جزيرة قبرس سنة ٢٧ هـ

* * *

فلما وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبوذر بالشام فرأى ما آل اليه المسلمون من الحال التى سبق وصفها . ورأى رجال الدولة تسمى الفىء مال الله ، وصلا بهذه التسمية الخادعة الى الاستئثار به أو التصرف فيه كما يشاءون . ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين : أغنياء مترفين وفقراء معدمين ، فأثارت تلك الحال حفيظة أبى ذر وهو الذى شهد دورة الفلك كاملة ، ورأى العرب فى جاهليتهم وما صاروا اليه فى خلافة عثمان ، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك . فأعلن برنامجه فى الاصلاح . فاما الفىء فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الاغنياء فيجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء ، وذهب أبو ذر الى ان المسلم « لاينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليله أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم » أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكيا صريحا . وقد شاعت دعوته فى فقراء الناس ومحاويجهم فثاروا بالاغنياء وطالبوهم أن يشركوهم فى أموالهم ، فتوجه الاغنياء بالشكوى الى أمير الشام لذلك العهد : معاوية بن أبى سفيان .

أحب معاوية قبل كل شىء ان يختبر صدق أبى ذر فيما يدعو اليه ، فبعث اليه فى جنح الليل بألف دينار ولما كان الصبح أرسل اليه يستردها بحيلة احتالها فوجد أبا ذر قد فرقها كلها ، فعلم معاوية أن الرجل يفعل ما يقول . فأقبل يجادله فيما يدعو اليه وعلى سبيل الترضية له قبل ان يسمى الفىء (مال المسلمين) بدلا من (مال الله) ولكن أباذر أصر على أن ينزل الاغنياء عن فضل أموالهم للفقراء ، وعبثا حاول معاوية أن يقنعه بان الآية التى يستدل بها انما نزلت فى أهل الكتاب وحدهم . وأعيا معاوية أمر أبى ذر فلجأ الى أخذه بالشدة فنهى الناس عن مجالسته وتهدده بالقتل فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره الى عثمان فأمره بأشخاصه اليه ، فأشخصه اليه على شر حال .

لم يكن أبو ذر فى المدينة بأسعد منه فى الشام فقد حاول عثمان أن يصرفه عن دعوته ، ويريه أنه لا يملك ان يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير فريضة الزكاة ، وان كل الذى يملك هو ان يدعو الناس الى الاجتهاد والاقتصاد . ولكن أبا ذر كان يريد برنامجه كاملا ، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله ، فرأى عثمان آخر الامر ان يحصر الخطر فى أضيق دائرة ممكنة فنفى أبا ذر الى الربذة وهى مكان فى البادية ناء عن المدينة . والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر من ابعاد ابى ذر عن الناس ، فالروايات تقول إنه أجرى عليه رزقا يناله كل يوم وأنه لم يمنعه من الاختلاف الى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد أعرابياً .

لم يكن أبوذر ثائرا ولكن طالب اصلاح ارتآه. ومما يدل على عدم نزوعه الى الثورة أنه وهو فى منفاه مر به ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا عن عثمان فطلبوا اليه أن ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته وشاكلتهم، فأبى ذلك بتاتا ونهاهم عنه: وأما مذهبه فى الاصلاح فلا شك أنه ابن بجدته، فالاسلام لايحظر الثروة ولا الملكية، ولا يوجب على المسلم حقا فى ماله غير الزكاة، وكل ماينهى عنه الاسلام فى هذا الصدد انما هو ان تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته.

وعندى أن حركة أبى ذر الاشتراكية تمت بسبب قوى الى حركة مزدك الشيوعى الذى ظهر بفارس على عهد قباذ وكسرى انوشروان، والذي كاد يقلب نظام المجتمع الفارسى رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه. فاذا عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيل الاسلام وان يهوديا من أهل صنعاء يعرف بإبن السوداء ادعى الاسلام فى خلافة عثمان وجعل يطوف الامصار الاسلامية داعيا الى الثورة، وأنه هو الذى حرك أبا ذر لما آنس فيه من الميول الاشتراكية، اذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التى أوشكت أن تقع فى الدولة الاسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين.

* * *

لبث أبو ذر فى منفاه نحو ثلاث سنين يعانى ألم الوحشة وكبر السن وخيبة الامل فلما أدركه الموت فى سنة ٣٢ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة ثباته على مبدئه حتى النهاية، وعلى أنه حقا قد مشى وحده ومات وحده، يروي ابن سعد فى طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أبا ذر حارت امرأته فى أمرها لتوحدها فى تلك الفلاة «فكانت تشد الى كثيب تقوم عليه فتنظر ثم ترجع اليه فتمرضه، ثم ترجع الى الكثيب، فبينا هى كذلك اذا هى بنفر تخد بهم رواحلهم كأنهم الرخم على رحالهم، فألاحت بثوبها، فأقبلوا حتى وقفوا عليها، قالوا مالك؟ قالت امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه. قالوا ومن هو؟ قالت أبوذر. ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، ووضعوا السياط فى نحورها، يستبقون اليه حتى جاءوه. فقال لهم ... ... ولو كان لى ثوب يسعني كفنا لم أكفن الا فى ثوب هو لى، أولا مرأتى ثوب يسعني لم أكفن الا فى ثوبها، فأنشدكم الله والاسلام الا يكفنني رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو نقيبا أو بريدا. فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك الا فتى من الانصار قال انا أكفنك فانى لم أصب ماذكرت شيئا، أكفنك فى ردائي هذا الذى علي وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى حاكتهما لى. قال أنت فكفنى .... فكان ذلك الفتى الانصاري هو الذى تولى تجهيزه ثم دفنوه جميعا».

وهكذا انطفأ سراج هذه الشخصية الفذة العجيبة. أنها لاشك من تلك الشخصيات التى يقدمها الزمن عادة بين أيدي الاحداث

العلم والخلق

للدكتور منصور فهمى استاذ الفلسفة بكلية الآداب

وجهة العالم فى أن يدرك الأمور على ما هى عليه، ونشاطه فى أن يكسب للمعرفة من ميدان الجهل، وأن ينشر النور حيث يخيم الظلام. ووجهة الخلقي فى أن يصور الأمور على ما ينبغى أن تكون عليه الأمور، وأن يلفت الأنظار الى مثل عليا تحفز بالناس للتسامي اليها والارتفاع بأنفسهم وبالحياة الراهنة الى ما هو أرفع من أنفسهم وأرفع من الحياة الراهنة.

ولطالما اضطربت الافهام واستغلق الأمر على الباحثين حين تعرضوا لاستجلاء الصلة بين العلم وبين الأخلاق فحسبوا أن الوشائج بينهما مقطوعة حين نظروا الى وجهتين مختلفتين: وجهة من يصف ويعلل، ووجهة من يرتقى مثلا ويوجه اليه، وجهة من يهز صوته الفكر ويتردد صدى هذا الصوت بين جوانب الدماغ، ووجهة من تؤم نغماته تجاويف القلب وتسرى فى أقنية الدم، وعلى أسلاك العصب تندفع بالنفس كلها الى العمل.

ولطالما رأى غير قليل من المفكرين أن العلم النظرى وثمراته التطبيقية لاتؤثر فى الناس لتهذيبهم على نحو ما تؤثر العقائد الدينية والفلسفة والمثل العليا، حتى أن بعض قادة الفكر فى الزمن الحديث أمثال «بسكال» و «ديكارت» اضطروا لانفسهم ذلك الرأى فخطئوا العلم ليجدوا فى الدين وفى العرف مرشدا لسلوكهم ومأمنا لأحكامهم وتقديرهم فى اتخاذ الحسن من الأفعال وتجنب القبيح منها، وفي اتخاذ السبيل لراحة النفس واطمئنانها. بل قد ذهب غير قليل من مفكرى عصرنا الى إساءة الظن بالعلم فحملوه أوزار الحروب القاسية، وأخطار الفراغ الممل، وأضرار الثورات الاجتماعية العنيفة ومساوىء المطامع والتنازع المادى حتى وقد يالقرن فى لوم العلم الى حد أن يروا على نحو ما يرى «اينشتين» فى أنه ذلك المسىء الى الحريات الانسانية، فمن ينظر الى تلك المصانع وما فيها من آلات متنوعة، وأعمال موزعة، يتبين أنها تتآمر جميعا على استعباد عدد من العمال وفير، وتسخيرهم تسخيرا آليا تضمحل معه نفوسهم، وتهن من تأثيره كرامتهم، بل ربما يذهب الذاهبون فى مذهبهم الصحافى هنا الى الخطيره إنذارا للناس واقامة للحجة عليهم اذا لج بهم التردد فلم يرعووا ولم يزدجروا.

على أن روح أبى ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه فى تلك الفلاة البلقع، فقد ظل صوته داويا الى أن عفى ما أمثر به المدينة من «غارة شعواء وحرب مذكار» ووقفت الفتنة الكبرى التى يقال أنها أنتجت كل فتنة حدثت فى الاسلام. ولقد كانت غفار ممن نهض فيها وألقى فى نارها حطبا.